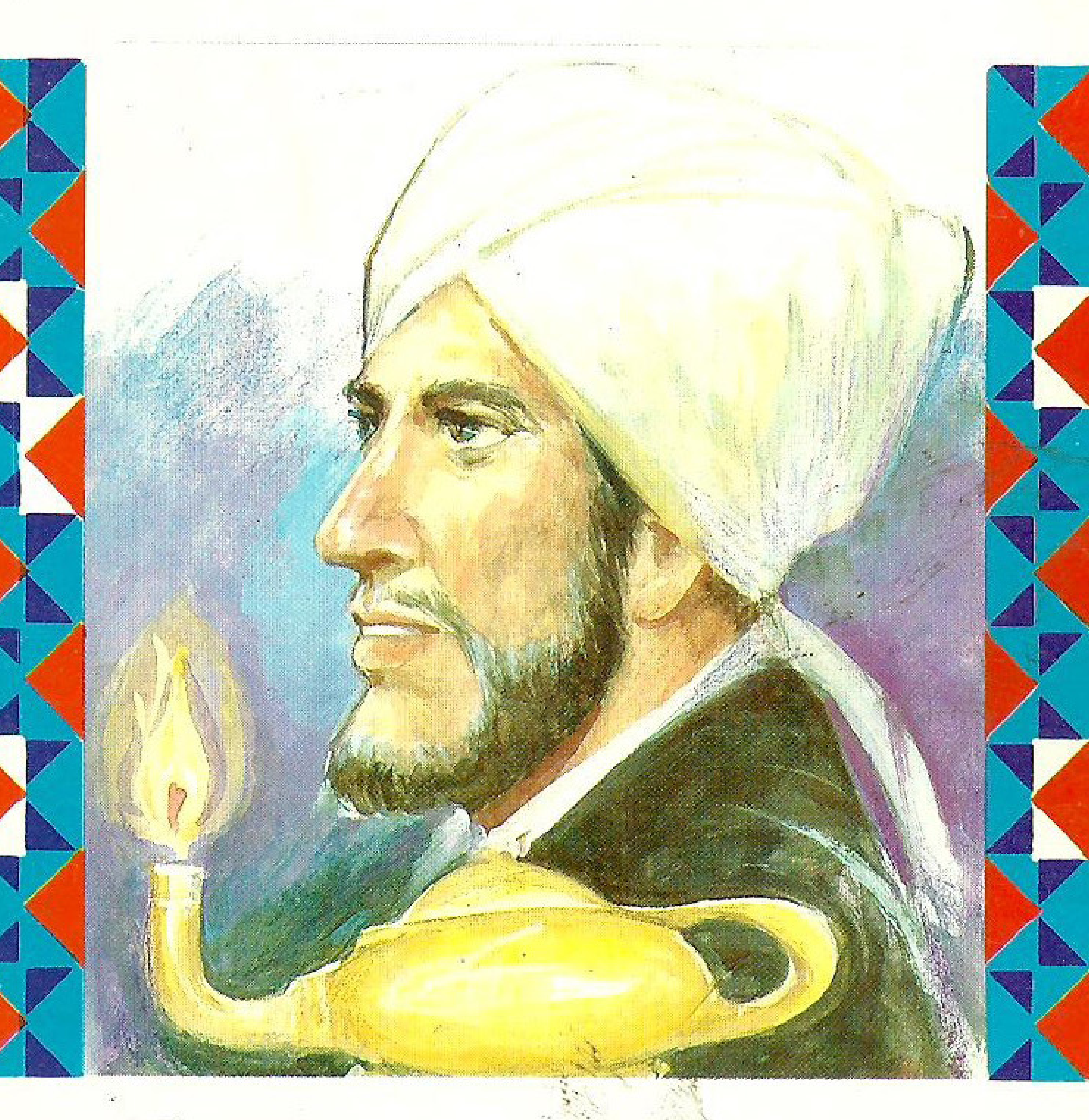



٣١

# الزرنوجي

## أبو التربية والتعليم




تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب



مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء العرب

(٣١)

# الزرنوجي

## أبو التربية والتعليم




تأليف : سليمان فياض

رسوم : إسماعيل دياب

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس ٥٧٨٦٨٣٣



## ابن زرنوج

طَوالَ النهار ، كان الصبىّ « برهانُ الدين » ، يتجوّل فى بلدتهِ زَرْنُوج ( بجمهورية أوزبكستان الآن ) يُودّع مَزارِعَها ، والصحراءَ القريبةَ منها ، وطيورَها وحيواناتِها ، وحاراتِها ، ودروبَها ، فى رحلةِ وداعٍ قصيرةٍ ، قد لايعودُ بعدَها إلى « زَرْنُوج » .

وظلّ برهانُ الدينِ فى تجوّله إلى مابعدَ صلاةِ العصرِ ، ثم عادَ إلى بيْتهِ ، ليتناولَ طعامَ الغداءِ وحيداً ، وأمُّه وأبوه وإخوتُه الكبارُ ، ينظرون إليه فى حبٍّ وإشفاقٍ ، فلسوفَ يسافرُ « برهانَ الدين » طلباً للعِلْمِ عامةً ، وللفقْهِ الإسلاميّ الحنفىّ خاصةً ، ولايعلمُ أحدٌ منهم متى سيعودُ إليهم ، ولا كيفَ سيكونُ مصيرُه فى طلبِ العلم ، من فشلٍ أو نجاحٍ .

وخلا الأبُ بابنهِ « برهان الدين » ، وقالَ له :

– ادخرتُ من أجلكَ بعضَ المالِ ، ولا أعرفُ متَى سأرسلُ لك مالاً آخرَ ، ولا كَمْ سأرسلُ إليكَ منه يابُرهانَ الدين ، فالأرضُ التى نزرعُها قليلةُ المساحةِ ، تُخصِبُ حيناً ، وتُجدِبُ حيناً آخر .

فقال له برهانُ الدين بإشفاقٍ :

– لاتحمِلْ هماً يا أبى ، فلسوفَ يرزقُنى الله ، بما حفِظتهُ من القرآنِ الكريم ، والحديثِ الشريف ، ولسوفَ أنالُ جانباً من مالِ الزكاة ، الذى يُعطَى لطلابِ العلمِ ، والمغتربينَ من أبناء السبيلِ ، وسأجدُ مسكناً ، وطعاماً ، وثياباً ، بفضلِ الأساتذةِ من العلماءِ فى المسجدِ الجامعِ بِخُوقند .



فقالَ لهُ أبوه مبتسماً :

– أرحتَ قلبى يابُرهان الدينِ ، ولن يُخيِّبَ الله لكَ رجاءً ، مادامَ قلبُك عامراً بالأملِ ، وعقلُك مشتاقاً إلى العلمِ . ولولاَ استعدادُك للعلم ، ورغبتُك الملحةُ فيه ، لَأبقيْتك معِى ، تعيشُ حياتنا بخيرِها وشرِّها ، وخِصبْها وجَدْبها . باركَ الله فيكَ يابرهانَ الدين .

وصحبَ الأبُ وأبناؤه « برهانَ الدين » إلى المكانِ الذى ستغادرُ منه القافلةُ بلدةَ « زرنوج » فى طريقِها إلى « خوقند » . وصافَح برهانُ الدينِ أباَه وإخوتَه ، وعانَقهم ، وركِبَ بغلةً عَليها متاعٌ قلِيلٌ . وغادرتِ القافلةُ بلدةَ « زرنوج » ، و « برهانُ الدين » ينظرُ خلفه ، مودِّعا أباه وإخوته ، ومراعِىَ زرنُوج وبيوتَها ، حتى غابتْ عنهُ المشاهدُ وراءَ الأفُقِ ، وكانتِ الشمسُ تغربُ ، وراءَ سُحُبٍ خريفية ، تاركةً وراءَها سحباً بيضاء خضبّتها ( لونتْها ) بألوانِ الشّفَقِ .

## مرحبا بك

عصر اليومِ التّالى ، كانتِ القافلةُ قد وصلَت ببرهانَ الدين إلَى مناخِ القوافلِ ، خارجَ « خُوقَنْد » ، فانفصَل « برهانُ

الدين » ببغلته ، يسألُ الناسَ عن سوقِ « خُوقند » حتى اهتدى إليه ، وعن المسجدِ الجامعِ لخُوقند ، فأشارَ له الناسُ إليه .

وربَط برهانُ الدين بغْلتَه ، بحلقةٍ فى سورِ المسجدِ ، وتركَها آمناً ، بينَ بغالٍ أخرى وخُيول . وخلعَ حذاءه ، وعبَر باب المسجدِ ، وتلفّتَ حولَه يبحثُ عن خادمِ المسجدِ ، حتى رآهُ ينظرُ نحوه ، فسألَه عن العالمِ الشيخِ الفقيهِ « المرْغيانى » ، فأشارَ خادمُ المسجدِ إليه . ونظرَ « برهانُ الدين » حيثُ أشارَ ، فرأى الشيخَ المرغيانى ، جالساً وسْطَ حلقةٍ ، على مقعدٍ وطيء ( منخفض ) يشرحُ لتلاميذِه درساً من دروسِ الفقه الحنفىّ ، وشعَرَ « برهانُ الدين » بالراحةِ ، حين نظرَ إلى وجْهِ « المرغيانى » . كان وجهُه بشوشاً ودُوداً ، يشى بأَصْل هو خليطٌ من الدمِ التركىّ والعربىّ . ومشَى برهانُ الدين ، حتّى جلسَ فى طرْفِ حلقةِ العلمِ المحيطةِ بالمرغيانى ، ورمَقَه ( نظر إليه ) المرغيانى . وابتسمَ له ، وكأنّه يقولُ له : « مرحبا بك فى خوقند » .

## كيف عرفت ؟

انتهَى درسُ المرغيانى ، وقد قارَبتِ الشمسُ على المغيبِ . وبدأتْ حلقةُ طلابِ العلم ، تنفضّ من حولِ الشيخِ ، فأشارَ



المرغيانى إلى بُرهانِ الدين بيدِه ، فنهضَ بُرهانُ الدين إليهِ ، وجلسَ بين يديْهِ ، قائلاً :

– سلامُ الله عليْك أيُّها الشيخُ الجليلُ .

وردّ الشيخُ تحيته بأحسنَ منها ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– أأنتَ قادمٌ من « زَرْنُوج » ؟

فدَهِشَ « برهانُ الدين » ، وقالَ للشيخ :

– نعم . كيفَ عرفتَ ياسيّدى ؟

فابتسمَ الشيخُ ، وقالَ له :

– قبلَ قليلٍ ، وصلتْ قافلةٌ قادمةٌ من زَرْنوج . فقلتُ لنفسِى لابُدّ أنّك جئتَ من زَرْنوج .

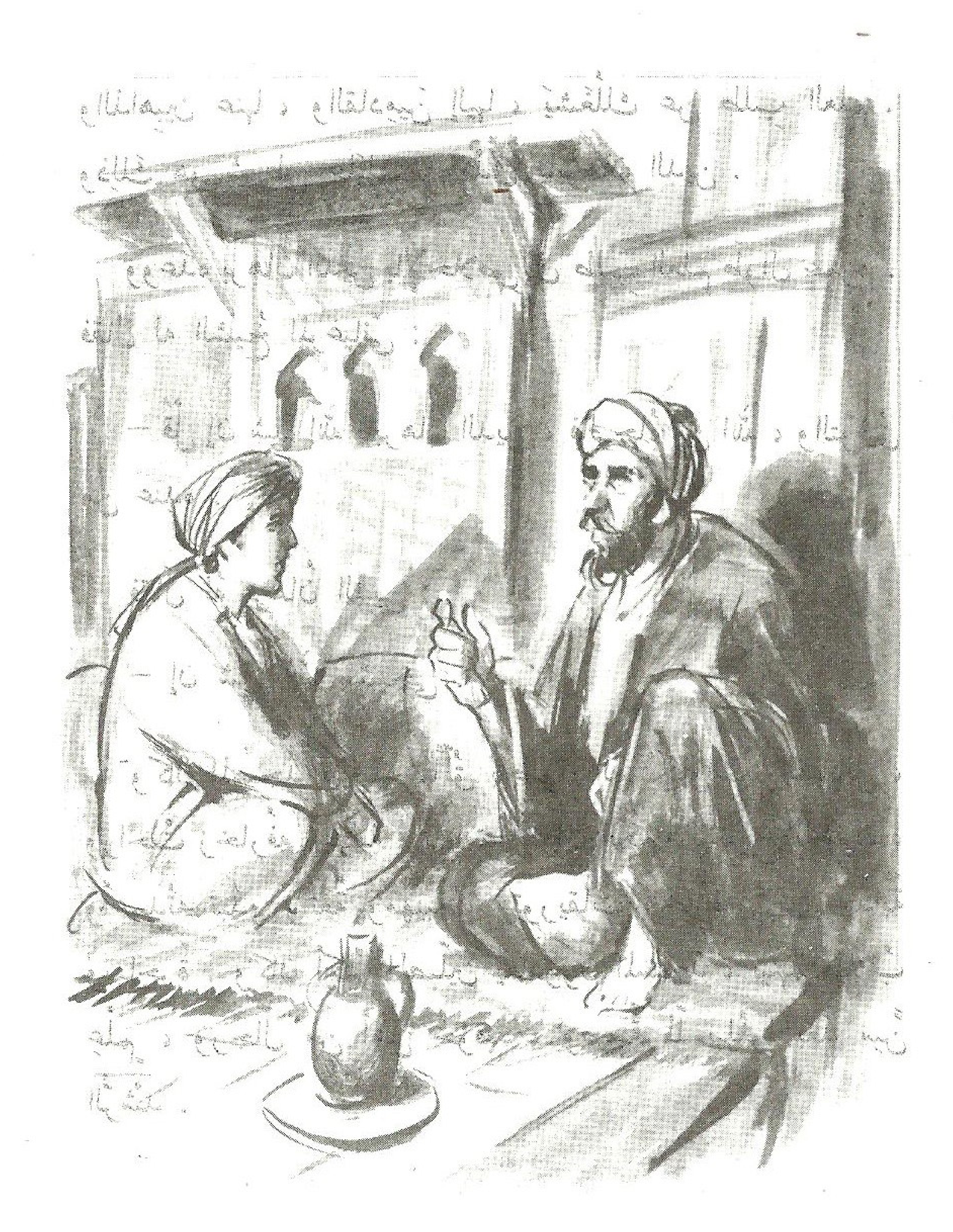
ثم قالَ لهُ الشيخُ مبتسماً :

– وألَيْسَ اسمُك « برهان الدين » ؟

فقال لهُ برهانُ الدين :

– بلَى ياسيدِى ، ومعِي رسالةٌ مِن ..

فقاطعَهُ الشيخُ قائلاً بُودّ :



– من تلميذِنا إمامِ مسجد زرنُوج . فقد كتبَ إلَىّ من قبلْ ، وحدّثنى عنك ، وأثْنَى ( مدح ) على حفظِك ، وفهمِك وذكائِك . أعطنِي الرسالةَ يابُرهانَ الدين .

وأخذَ المرغيانى الرسالَة ، لكنهّ لم يفضّ ( يزيل ) خاتَمها ، فقد ارتفَع صوتُ المؤذّنِ يؤذّنُ لصلاةِ المغرب . عندئذٍ نهضَ الشيخُ المرغيانى ، وتحركَ نحوَ المحراب ، وجلسَ ناظراً إلى المحراب ، ينتظرُ أن يفرَغ المؤذنُ من أذانِه ، ليؤُمّ الناسُ فى الصلاةِ .

## أنتَ ضيفِى

انتهتِ الصلاةُ ، وراحَ الشيخُ المرغيانى يصافِحُ بعضَ المصلّين ، ثم التفتَ إلى برهانِ الدين ، فاقتربَ منه ، وقالَ له الشيخُ المرغيانى :

– أنتَ الليلةَ ضيفِي ، إلى أن ندبّر لك بيتاً تعيشُ فيه ، وفِراشاً تنامُ عليه ، فى بيت من بُيوتِ طلابِ العلم بخُوقند . ولاتحمِلْ هماً من هموم العيش ، فنفقتُك جاريةٌ فى هذهِ المدينةِ . وادّخِرْ للزمنِ ما أعطاهُ لكَ أهلُك من مالٍ . وأفرِغْ قلبَك كُله ، وعقلَكَ كلَّه ، لطلبِ العلم ، ولاتدعْ لَهْوَ أهلِ هذه المدينة ،

والذاهبين عنها ، والقادِمينَ إليها ، يَشغَلُك عن طلبِ العلم . وذلِكَ هو شرطِى عليْك . فعِدْنى يابرهان الدين .

ووعدَه برهانُ الدين بالإخلاصِ فى طلبِ العلم طَوالَ عمرِه . فقال له الشيخُ المرغيانىّ :

– قُلْ إن شاءَ الله يابرهانَ الدين ، فالرجاءُ من الله ، والتوفيقُ من عندِه .

فقالَ لهُ برهانُ الدين :

– إن شاءَ الله ياشيخى .

وكان المسجدُ قد بدأ يتألّقُ بأضواءِ المِشْكاوَات والقناديل ، وراحتْ زخارفُه الخطّيةُ ، بآياتِ القرآنِ الكريم ، تلوحُ لِلعيُونِ ، وأعمدتُه تبدُو رائعةً ومهيبةً ، وتوريقاتُ زخَارِفه تُرى جذّابةً وساحِرةً . وكان أكثرُ المصلّين يغادرونَ المسجدَ ، بينهم طلابُ عِلْمٍ ، ورجالٌ من أهلِ خُوقند ، وصِبيةٌ لمّا يبلغُوا بعدُ سِنَّ الرُّشْد .



# الليلة الأولى

وتبع « برهانُ الدين » شيخه « المرغيانى » فى طريقهِ إلى بيتِ الشيخ ، وصحبَ معهُ بغلته ، حتى وصلاَ إلى بيتٍ متواضعٍ ، لهُ ساحةٌ . وعبَر برهانُ الدين عتَبَة البيتِ ، فرأى حلقاتٍ متناثرةٍ فى سورِه القصيرِ ، فعقدَ لجامَ بغلته بحلقةٍ منها ، وراحَ يُنزِلُ ما على البغلةِ من متاعٍ . وأسرَع خادمٌ بالبيتِ إلى البغلةِ ، بطعامها من التبن والفول ، وكان شرابُها من الماءِ بجانبِها فى حوْضٍ من الحجَر . وضحِكَ الشيخُ المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– إطعامُ الحيوانِ من أدبِ الدين يابرهانَ الدين ، فعجّل به له ، قبل أن تنالَ أنتَ طعامَك .

وتبعَ برهانُ الدين شيخَه إلى داخل البيت ، وجلسَا معه فى غرفَةِ الضيافة يتحدثان تحتَ ضوءِ قنديل عن أحوالِ زرنوج ، وخوقند ، وعن مدَى حفظِ برهانِ الدين للقرآنِ الكريم ، والحديثِ الشريف ، ومعرفتِه بالحسابِ ، فهو ضروريٌّ لكل من يشتغلُ بالفقه ، فى بابِ المواريث ، وباب الزكاة .

وعادَ الاثنانِ مرةً أخرىَ إلى المسجد الجامعِ بخُوقند ، وأدّيا

صلاةَ العَشاءِ ، ثم عادَا مرةً أخرى إلى بيتِ الشيخِ ، ووجدَ برهانُ الدين لنفسِه فى بيتِ الشيخ غرفةً هادئةً مُريحةً ، بها فِراشٌ وثيرٌ للضيفِ ، فنَزَعَ عنه ثيابَ السفر . وسرْعانَ ما دخلَ فى نومٍ هادئٍ سريعٍ ، ليستيقظَ سعيداً ، ممتلئَ القلبِ بالأملِ ، قُبيلَ صلاةِ الفجرِ .

## مصانع وبساتين

أذِنَ الشيخُ المرغيانى لبرهانِ الدين أن يتجوَّلَ فى « خُوقند » ، إثْرَ طعامِ الإفطارِ ، ليرَى المدينةَ التى سيعيشُ بها زمناً ، قد يقصُرُ وقد يطولُ ، تاركاً له هو أنْ يدبّرَ له مسكنَه الجديدَ ، وما قد يحتاجُ إليهِ من متاعٍ ، وأوراقٍ ، وأقلامٍ ، ومحبرةٍ . وغادرَ برهانُ الدين ، قُبَيْلَ الضّحَى ، بيتَ شيخِه المرغيانى .

وبهرتْ مدينةُ « خوقند » عيْنَى برهانَ الدين ، بسُوقِها ، ودارِ إمارتِها ، وشوارِعها ، وطرقاتِها ، وبساتينِها العامّة فى الميادينِ ، والخاصةِ أمامَ البيوتِ المُترفَةِ ، ووراءَ أسوارِها . كانت مدينةُ خوقند تقعُ فى موضعٍ متوسّطٍ بين مدينتَىْ « طِشْقَنْد » فى الغربِ ، و « سمرقند » فى الشرقِ ، وإلى جنوبِها الشرقىّ كانت مدينةُ فَرغانة . وكانتْ « خُوقند » تنافسُ ، فى زمانِ



برهانِ الدين ، المدائنَ الكبيرة حولَها ، بجمالِها ، وآثارِها ، وتنظيمِها ، وعلمائِها .

وسارَ برهانُ الدين على شاطئِ نهر آمُودَارْيا ( نهر سيحون ) غربىّ خُوقند ، وكانَ النهرُ يحيطُ بمدينةِ خُوقند من الجنوبِ ، والغربِ ، وقد نمتْ على جانبيْه أشجارٌ سامقةٌ ( عالية ) ، وصدَحت بين أفنانِها ( أغصانِها ) تغاريدُ الطيور ، من بلابلَ وعصافيرَ .

ورأى برهانُ الدين رأىَ العينِ ، بخُوقند ، مصانعَ الحرفيّينَ للمنسوجات الحريريةِ والقطنيةِ ، ومصنعاً للورقِ الذى عرفَه العربُ عن أهلِ الصين ، وقدّر حينَ رأى ضخامتَه وعددَ العاملينَ به ، أنه ينافِسُ مصانعَ أخرى للورَق ، كان يسمعُ عنها فى بُخارى ، وسمَرْقند ، وفَرْغانَة . ورأى سُفُنَ التجارة والصيد ، غاديةً ورائحةً فى النهر ، شمالاً وجنوباً ، تحملُ السِّلَع والبضائعَ والصيادينَ ، ورأى قواربَ نهريةً صباحيةً ، تحملُ المتنزهّين .

وكادتْ مشاهدُ خُوقند تَشْغَلُ برهانَ الدين ، كصبىّ ، عن لقاءِ شيخهِ ، لولاَ أنه سمِعَ أصواتَ المؤذّنين ، تدعُو الناسَ إلى

صَلاة الظهرِ ، فى مساجدَ خُوقند ، فأسرعَ برهانُ الدين إلى المسجدِ الجامعِ ، مسترشداً بمئذنتِهِ المهيبة ، الممتدةِ فى الفَضَاء .

## بين حلقات العلم

فى « خُوقَنْد » استقرّ المُقَامُ ببرهانِ الدين ، فى بيتٍ جميلٍ من غرفتينِ وردهة ، تطلُّ شرفتُه على الشاطىء الغربىّ لنهرِ آموداريا . وبين الحينِ والحينِ ، كان برهانُ الدين يكتبُ رسائلَ لذويه ( أهله ) ، يبعثُ بها مع القوافلِ المارةِ بزرنوج ، أو مع بريد الخيل ، بين مدائنِ بلادِ ماوراءَ النهرِ ، وفى كلِّ يومٍ ، كانَ برهانُ الدين يقضى صباحَهُ فى المذاكرةِ لما سمِعَه من دروسِ شيخِهِ المرغيانى ، فى الفقهِ الحنفىّ ، وكان فقها يعتمدُ على أحكامِ النصِّ القرآنى أولاً ، والحديثِ الموثوقِ بِهِ ثانيا ، ويُحكّمُ العقلَ وروحَ الدين ، فيما لم يردْ به نصّ من قرآنٍ أو سُنّةٍ ، من أمورِ الناسِ الجديدةِ المستحدثَة ، عبْرَ العصورِ والبُلدان . وعندَ العصرِ كان برهانُ الدينَ يجلسُ مع طلابِ الفقه ، فى حلقةِ شيخِهِ المرغيانى ، ويجلسُ بين صَلاتَىْ المغربِ والعِشاء ، مع طلابِ علومِ اللغةِ ، فى حَلْقةٍ من حَلْقاتِ علماءِ اللغة ، فى النحوِ أو الصرفِ ، أو البلاغةِ ، بمسجدِ خُوقند الجامع .





## كيف تذاكر دروسك ؟

وخلاَ الشيخُ المرغيانى يوماً ببرهانَ الدين ، وهو يزُوره فى بيتِه ، وسألَه قائلاً :

– كيفَ تذاكرُ دروسَك يابرهانَ الدين ؟

فقالَ له برهانُ الدين :

– أذاكرُ دروسَ كلِّ يوم ، فى صباحِ اليومِ التالى ، أولاً بأوّل ، وجزءاً جزءاً .

فقالَ لهُ الشيخُ المرغيانى :

– وكيفَ تراجعُ ماسَبَقَ من دُروس ؟

فقال له برهانُ الدين :

– إننى أعتمدُ على جوْدةِ حفظى ، وقوةِ ذاكرتى ، ياشيخى .

فابتسمَ الشيخُ المرغيانى ، وقالَ له :

– يابرهانَ الدين . العقلُ يكِلّ ( يضعف ) من كَثْرةِ معارفِ العلوم ، والحفظُ يقلّ عاماً بعدَ عام . والتحصيلُ الجزئىّ المتَناثِرُ والمتراكِم ( المتجمع ) لمعارفِ العلمِ ، معرفةً بعد معرفة ، ومعلومةً بعد معلومةٍ ، تظلُّ منفصلةً ، لايجمعُها كلُّ واحد ، ولاتَرْتبطُ فى نَسقٍ ( نظام ) شاملٍ يضمُّها . فماذا أنْتَ صانعٌ بنفسِك ، وبعلمِك ، آنئذ ؟

## خذ هذا الكتاب

وفكّر برهانُ الدين برُهةً ، ثم قالَ لشيخِه المرغيانىّ :

– فأرشِدْنى ياشيخى إلى طريقِ التحصيل .



فقال لهُ الشيخُ المرغيانى :

– يابرهانَ الدين . سأُعْطِيك كتاباً يعلمُك : كيفَ تَحفَظُ ، وكيفَ تُحصِّل ، وكيفَ تراجِعُ ، وكيفَ تسترجِعُ ماسبقَ من درُوس ، وكيفَ تُفرِّع معارفَ العلمِ من شجرته ، أغصاناً ، وأوراقاً ، وثماراً ، وزهُورا .

ونهضَ الشيخُ المرغيانى إلى دَوَاليب مكتبتِهِ ، وسحَب بيده ، من رفٍّ بَعْينه بينَ رفُوفِها ، كتاباً بعينِه من بين كتبِها ، وأعطاهُ لبرهانَ الدينِ ، قائلاً له ، وهو يعودُ إلى مجلسِه :

– خُذْ هذا الكتاب ، وانسَخْ لنفسِك منهُ نُسخة ، وأعِدْه إلَىّ ، لينتفع به سِواكَ من بعدِك ، فلعلّه أن يكونَ النسخةَ الوحيدةَ بخُوقند ، وقد جلبَه لى تاجرٌ ، سافرَ يوماً إلى المغرِب ، ونزلَ بالقيْروان .

ونظرَ برهانُ الدين إلى الكتابِ ، وقرأ عنوانه ، وعرفَ اسمَ مؤلفِه ، وكانَ الكتابُ للقابسىّ القَيْروَانىِ ، وكانَ العنوانُ هو : « الفضيلةُ لأحوالِ المتعلّمينَ ، وأحكامِ المعَلِّمينَ » .



# الحفظ والفهم

فى كل ليلة ، كان « برهانُ الدين » ينسخُ بيدِه ، وبخطٍّ جميل ، نُسخَةً لنفسِه ، من كتابِ القابِسىّ ، ونسخةً أُخرى ، من كتابِ « الهِدَاية » فى الفِقه الحنفىّ ، لشيخِه المرغيانى . وفى كلِّ صباح لم ينقطعْ برهانُ الدينِ عن استذكارِ دروسِه ، ولا عَنْ سماعِ دُرُوسٍ جديدةٍ عصرَ كلّ يوم ، من شيوخِه فى الفقهِ وعلومِ اللغة .

ووعَى « برهانُ الدين » من كتابِ القابِسىّ مبادِىءَ لابُدّ من إتباعِها لطالبِ العلمِ ، أن يحفظَ كتاباً واحداً كمصدرٍ ومرجعٍ فى أىّ علم ، وأن يدرُسَ ماعدَاها فى ضوءِ ماحفِظه من حقائقَ العلمِ ، وأن يُقدمَ الفهمَ على الحفظِ ، ويتجنّب أن يحفظَ دونَ أن يفهمَ ، فالحفظُ يُنسى ، والفَهْمُ يَبْقى ، والقدرةُ على الفهمِ هى غايةُ كلّ عِلْم ، والطريقُ إلى أىِّ علم .

# عليك بالفهرس

وأعادَ برهانُ الدينِ كتاب القابِسىّ إلى شيخِهِ ، وقد فهمه فهماً أرشده ، وأنارَ له الطريقَ ، وقالَ لشيخه :

– اكتشفتُ أمراً ياشيخِي ، وأنا أنسخُ بيدِى كتابَ القابسى ، وكتابك « الهِداية » .

فقالَ له المرغيانى باسماً :

– وماذا كانَ اكتشافُك يابرهانَ الدين ؟

فقال له برهانُ الدين :

– اكتشفتُ أن نَسْخَ طالبِ العلمِ للكتابِ بيدِهِ ، يمنحهُ قدرةً أكبر عَلى فهمِ مافيه ، وحفظ مقولاتِه ومعلوماتِه ، وأن اعتمادَ طالبِ العلم على كتابِ نسخَه غيرهُ ، يقلّلُ من فهمِهِ له ، وقدرتِه على حفظِه .

فضحِكَ المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– إلا فى حالةٍ واحدةٍ يابرهانَ ، إذا لجأ إليها طالبُ العلم فلْن يكونَ بحاجةٍ إلى إضاعةِ وقتِه ، فى نسخِ كتاب يمكن أن ينْسَخهُ له سِواه ، أو يشترى نسخةً منه من عندِ ورّاق ، من هؤلاءِ الوراقين .

فقال له برهان الدين :

– وما هذِه الحالةُ ياشيخى ؟



فقال لهُ المرغيانى :

– لكلّ كتابٍ مُحتوى ( فهرس ) منَ الأبوابِ والفُصُول . أليسَ كذلك ؟

فقال له برهانُ الدين :

– بلَى ياشيخِي .

فقال لهُ المرغيانى :

– فابدْأ فى أىّ كتابٍ منسوخٍ لأجلِك ، بمعرفةِ هذِه الأبوابِ ، وتلكَ الفصول ، فى فهرسِ الكتاب ، ثم ابدأْ فى دراستِها فصلاً فصلاً ، وتحصيلها باباً باباً ، ولَسوْفَ يغنيكَ هذانِ الأمرانِ عن نسخِك لأى كتابٍ بيدِك ، مادمتَ قادراً على أن تَحْصُلَ على نسخةٍ منه ، نسخَها غيرُك .

وضحِكَ الشيخُ المرغيانى ، ثم قال :

– ومن يدرِى يابرهانَ الدين ، قد يأتِى يومٌ تجد فى نفسِك رغبةً ملحة لأن تضعَ فى التّعلّم والتعليمِ كتاباً ، هو ثمرة خبرتِك فى التعلُّم ، على أيدى معلّميك ، وأنا لا أعرفُ فى هذَا المجال ، إلى زمانِى ، كتاباً آخر فى هذا الفنِّ ، سوَى كتابِ القابِسىّ القَيْروانِى .

# ثم صار عالما

فى مدينةِ « خُوقند » عاشَ برهانُ الدين عمرا . لعلّه بلِغ خمسينَ أو أربعينَ سنة ، يعيشُ صيْفاً معتدلاً ممطراً ، بين عشرينَ وثلاثين درجةً مُئويّة ، وشتاءً عاصفاً بالثلجِ والمطرِ ، تتراوح دَرجةُ حرارته بين الصّفرِ ، وعشرِ درجاتِ تحت الصفر . فى مناخ صحراوِيٍّ ، قارس ( شديد ) البردِ فى الليلِ . وكانتْ مدينةُ خُوقند « اندرين الآن » ، فى قلبِ وادٍ من السهوبِ ( المراعى ) ، تحيطُ بها عن بعدٍ قريبٍ ، جبالُ « تيانْ شَان » من الشمالِ ، والشرقِ والجنوب ، وعلى ارتفاعاتٍ جبلية تتراوح بين خمسمائة قدم وألفىْ قدم ، تُكلّل هاماتِها ( قممها ) ثلوج الشتاء ، ولايحولُ ذلكَ المناخُ القاسِي ، فى صيفه وشتائه ، بين برهانَ الدين وطلبِ العلمِ ، على يدِ شيخه المرغيانى ، وشيوخِه الآخرين .

وحينَ عَلت ، مكانةُ « برهانُ الدين » فى الفقهِ الحنفىّ ، كان يجلسُ فى المسجدِ الجامعِ بخوقند ، مكانَ أستاذِه ، ليدرِّسَ كتابَ « الهداية » لطلابِ الفِقْهِ الحنفىّ ، حين يُصابُ أستاذُه المرغيانى بمَرضٍ من أمراضِ الشتاءِ ، أو حينَ تُقعِدُه آثارُ الشيخوخةِ



وكِبرِ السنّ . فقد كانَ « برهانُ الدين » قد أحاطَ علماً بالفقهِ الحنفِي كلّه ، أصولِهِ ، وفروعِه ، واختلافِ الآراءِ فى هذِه الفروع .

وكان أستاذُه المرغيانى قد أعانَه على العيش ، فألحقه بمسجد آخرَ من مساجدِ خُوقند ، ليكون واعظَه وإمامَه . فأخلَى برهانُ الدين مسكنَه المخصَّصَ لطلابِ العلم ، واستأجر لنفسِه مسكناً خاصا به ، أكثر غرفاً ، وأرحبَ اتساعاً ، يطلُّ على نهرِ آموداريا ، وتزوّج فتاةً من بناتِ « خوقند » . ولم تَنقطِعْ الرسائل والزياراتُ بيْنه وبين ذوِيه فى « زَرْنوج » .

## أعدك ياسيدى

وذاتَ ليلةٍ ، توجّه « برهانُ الدين » ليعودَ ( يزور ) شيخَه المرغيانِي فى مرضِه ، فوجدَه أفضلَ حالاً . وفاجَأ « المرغيانى » برهانَ الدينِ بقولِه :

— متَى ستضعُ فى الفقهِ الحنفِىّ كتاباً ، يحملُ اسمَك ، وتُدَوِّن ( تسجلُ ) فيه آراءَك ؟

فقالَ له « برهانُ الدين » بإخلاصٍ :

– فى العلم ، أىّ علمٍ ياسيدى ، لايجدُر بعالمٍ أن يؤلفَ كتاباً فى علمٍ ما منَ العلومِ ، إلا إذا كانَ سيقولُ جديداً فيه ، منهجاً ، وطريقةَ عرض ، وآراءً وأفكاراً . وأنا أجد فى كتابِك « الهداية » الغِنَى كلَّه ، عن أىِّ كتابٍ آخر ، فى الفقِه الحنفىّ .

فقالَ له « المرغيانى » :

– حدَّثني طلابُ العلم ، الذينَ استمعُوا لكَ ، فى دروسِ الفقه ، التي قُمتَ بعبئها ( مسئوليتها ) نيابةً عني ، أنهُ لامثيلَ لك كمحاضرٍ ، ومناظرٍ ، ومجادلٍ ، ومناقشٍ ، ومحاورٍ . وقد أشادُوا واحداً بعدَ واحدٍ ، بطريقتِك فى التدريس والتعليم ، والإرشادِ إلى طرائقَ التحصيل ، فهماً وحفظاً . فلماذا لاتضعُ خبرتَك هذِه يابرهانَ الدينِ فى كتابٍ ، يكونُ مرشداً لطلابِك ، وهادياً مِنْ بعدِك لمنْ سِواهم من طلابِ العلم ، فى كلِّ العصورِ والبُلدانِ ؟!

فوجىءَ « برهانُ الدين » بما قالَه شيخُه له ، وبسؤالِه المثيرِ ، فأطرقَ ( أحنى رأسه ) صامتاً ، ومفكراً . فقالَ لهُ المرغيانى :

– أتذكرُ كتابَ القابسىّ القيروانى فى التعلُّم والتعليم ؟

فقال لهُ برهانُ الدين :



– نعمْ ياسيدى . أذكرهُ وقد فهمتُه وحفظتُه . وبوُسْعِي الآنَ أن أُمليه من الذاكرةِ ، وأن أشرحَه شرحاً وافياً .

فقال له المرغيانى :

– يابرهانَ الدين ، أليستْ لك مُلاحظاتُ عليه ؟ ألم تأخُذْ عليه نواقصَ فى منهجِه ، وفصولِه ، ومقولاتِه ، ومعلُوماتِه ؟

فقال له برهانُ الدين :

– بلَى ياسيدى .

فقال له المرغيانى :

– إذن . فتوكّل على الله يابرهان ، وضعْ فى هذا الموضوعِ كتاباً جديداً من تأليفك ، تصبُّ فيه صباً ، رؤيةً جديدةً لك ، فى التعليمِ والتعلّم ، وخبرتَك فى طرائقِ التحصيلِ والتدرِيس . فمدخلُ العلمِ ، أىُّ علمٍ ، هو أولاً ، فى كيفيةِ تحصيلكِ لهذا العِلم ، فهماً ، وحفظاً ، واستذكاراً ومراجعةً .

عندئذ لم يزدْ برهانُ الدين عن قولِه :

– أعِدُك بذلِك ياسيّدى

# كتاب برهان الدين

خِلالَ أُمسياتٍ عديدةٍ ، دامتْ شهرْين لاغير ، أنجزَ برهانُ الدين كتابَهُ الخاصَّ فى التعلُّم والتعليم .

استعرَض برهانُ الدينِ فى بدايةِ تأليفِه لكتابه ، منهجَ الكتابِ وفصولَه ، ووضَعها فى مقولاتٍ فكريةٍ محدّدة ، راحَ يُعبِّر عنها فكرةً فكرةً ، وفصلاً بعدَ فصلٍ . مهتدياً بفهرسِه العام ، وحين ختَمه بحمدِ الله ، كان الكتابُ قد استوىَ فى كُتَيِّبٍ مُكثَّفٍ ( مركز ) وتعبيرٍ أدبىٍّ واضحٍ وبسيطٍ ، لاتشُقُّ على قارئِه متابعتُه ، ولامعرفةُ معانىِ كلماتِه وجُملِه ، ولاتَتابُعُ أفكارِه ، من المقدّماتِ إلى النتائج .

وحَمل « برهان الدين » كتابَه ، وذهبَ إلى شيخِهِ المرغيانى . كان كتاباً ، فى ثلاثٍ وستينَ صفحة ، وأعطَى برهانُ الدينِ شيخَه كتابَه ، قائلا :

– عفواً ياسيدى . فالكتابُ قليلُ الصفحات ، وأرجُو أن يكون كثيرَ المعارِف ، غزيرَ الفائدةِ ، واضحَ الفهم ، بسيطَ التَّعبير .



وقَلّب المرغيانى كتَابَ برهانِ الدين ، ثم توقّف عندَ فهرسِه ، وقال :

– أقْرأ لى يابرهانَ الدينِ فصولَ هذَا الفهرس .

وراحَ برهانُ الدينِ يقرأ عناوينَ فصولِ كتابه ، قائلا :

– خطبةُ الكتاب ، فصولُ فى : ماهيةِ العِلْمِ والفقه وفضلِه ، النيةُ حالُ التعلم ، اختيارُ العِلْمِ والأستاذِ والشريك والثباتُ فى طلبِ العلم . تعظيمُ العلْم وأهلِه . الجِدّ والمواظبةُ والهِمّة . بداية السّبَق ( الدرس ) وقدرُه وترتيبُه ، التوكّل فى طَلَبِ العلم ، وقتُ التحصيلِ للعِلمِ ، الشفقةُ والنصيحةُ لطالبِ العلمِ ، والاستفادة من العلم فى كلّ وقتٍ ، والوَرعُ ( التقوى ) فى حالةِ التعَلم ، ومايُورث الحفظَ ومايُورثُ النسّيان ، ومايجلبُ الرزق لطالبه وما يمنعهُ ومايُزيدُ فى عمره ومايُنقصُه .

عندئذٍ التفتَ المرغيانى إلى برهانِ الدين ، وقالَ له باسماً :

– أحسنتَ الاختيار لفصولِ كتابك يابرهانَ الدين . ويُعجبنى فيما سمعتُه منكَ من عناوين ، مزْجُك بين طلبِ العلم وتَقوى طالبِ العلم ، طلباً للإخلاصِ ، والنزاهةِ فى طلبِ العلم ، والغايةِ منه . فدعْ لى هذا الكتاب ، لأقرأهُ غداً ، وأنَا

جالس فى الشمسِ ، مديراً ظهرى إلى زُجاجِ النافذةِ .

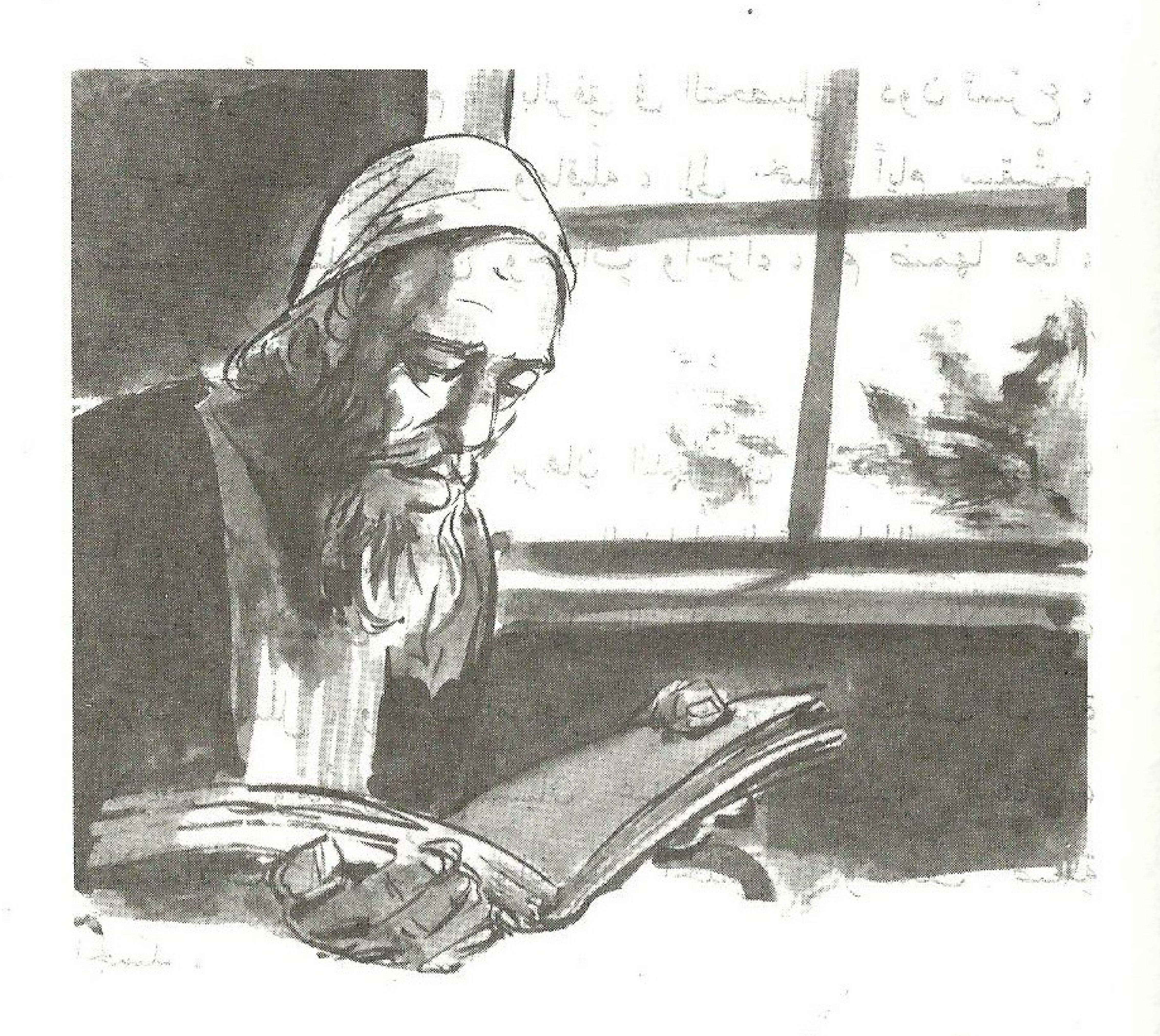
وسكت المرغيانى لحظة ، ثم قال بحبّ لبرهانِ الدين :

– بارك الله فيكَ يابرهانَ الدين ، فلم تخيّب يوماً ، حُسنَ ظنّى بك ، منذ أنْ رأيتُك لأول مرةٍ قادماً إلىّ من « زَرْنوج » .

## وراء النافذة

فى الصباحِ ، وقتَ الضحى ، جَلس المرغيانى الجلْسة التى يُحبُّها شتاءً ، كلما مَدّتِ الشمسُ أشعتَها وحرارتَها ، عبرَ الزجاجِ المُغْلَق ، اتّقاء للبردِ وللهواء ، وكانتْ ثمة مِدْفأةٌ يتوهجُ مابها من جَمَراتِ الفَحْم ، فى جانبٍ بعيدٍ من الغُرفةِ ، يقرأُ قراءةَ عالِمٍ مدرَّب ، على مَهَل ، كتابَ برهانَ الدين عن التعلُّم والتعليمِ ، عن حالِ طالبِ العلم ، وأخلاقِه ، وإخلاصِه فى التعلّم والتحصيل ، وعن عناصر نسقِ ( نظام ) التعلُّم ، بالتأهبِ ، والنيةِ ، والهمةِ ، والتوكّل ، وعن أدبِ النفسِ بتعظيم العلمِ والعلماء ، وتجنُّب الذميمِ من الأخلاقِ ، وعن ضرورةِ المشاركةِ فى طلبِ العلم بالمطارحةِ ، والمناظرةِ ، والمذاكرةِ ، والمشاوَرة ، والتأملِ الموجَّه فى دقائقِ العلمِ ، وعن ضرورةِ





حيويةِ طالبِ العلم ، بالفهمِ ، والتكرار ، وعدمِ الكسلِ ، والاستمرارِ فى طلبِ العلم .

وتوقّفَ « المرغيانى » عندَ آراءِ برهانِ الدين بضرورةِ التدرّجِ فى طلبِ العلم ، بالبدءِ من المعلومِ إلى المجهولِ ، ومن المحسوسِ إلى المعقولِ ، ومن اليسيرِ الفهمِ إلى الصعبِ الفهم ، وباتباعِ أسلوبٍ معين فى المراجعةِ ، والحفظ ، وبزيادةِ القدرِ المدروسِ

زيادةً يسيرةً فى كل يوم ، وبالرفقِ فى التحصيل ، دون تَسرّع ، وبمراجعة تحصيل الأمسِ وماقبلَه ، إلى خمسةِ أيام سبقتْ ، وبتقسيمِ الاستذكارِ إلى وِحْداَتٍ وأجزاء ، ثم ضمّها معا ، حفظاً وفهماً .

وانبهرَ المرغيانى بآراءِ برهانِ الدين فى الحفظِ والنسيان ، فما يُورثُ الحفظ عندهَ ، هو النشاطُ العقلى لطالبِ العلم ، والنشاطُ الجسدِى له ، بتقليلِ الغذاءِ ، وتنظيفِ الأسنان ، وشُرْبِ العسل ، وتجنبِ أمراضِ الحرّ والبردِ ، ومتاعبَ المِعدَةِ والأمعاءِ . ومايُورث النسيانَ عندهَ هو الكسلُ العقلىّ ، والانفعالاتُ النفسيةُ ، والفسادُ الخلقى ، وضعْفُ صحةِ الجسَد .

وشعرَ المرغيانى بوهَن ( ضعف ) جسده ، فتوقّف عن القراءةِ ، وأغفَى ( نام نومة قصيرة ) فى مكانِه ، إلى أن أيقظه صوتَ المؤذّنُ يؤذن لصلاةِ الظهر .



# أخلاق طالب العلم

فى الليلِ ، جاءَ « برهانُ الدين » لزيارةِ شيخهِ المرغيانى ، وكان يبدُو عليه القلقُ والتوتّر . وحين رآه المرغيانى ، وهو مضطجعٌ ( راقد ) فى سريره ، ضِجْعَة الجالسِ والراقد معاً ، قال لبرهانِ الدين :

– أراكَ قلقاً يابرهانَ الدين . وأظنُّ أن سببَ قلقِك ، هو شوقُك إلى معرفةِ رأيى فى كتابِك .

فقال لهُ برهانُ الدّين :

– نَعمْ ياسيدى .

فقال له المرغيانى :

– طبْ نفسا يابرهانَ الدين . أعجبنِى كتابُك وراقَنِى ، فهو كتابٌ بديعٌ . قرأتهُ اليومَ فى جِلستين ، عندَ الضحى ، وعندَ العصر .

فقال لهُ برهانُ الدين :

– يُسعدنى رأيُك ياسيدى .

فقال له المرغيانى :

– كيف ترى يابرهانَ الدين السلوكَ الأخلاقِىّ لطالب العلمِ فى تعاملِه العلمى ؟

فقال له برهان الدين :

– أجبْتُ عن هذا السؤال فى فصولِ كتابى ياسيدى . وأوجزُه الآنَ فى غايات علَى طالبِ العلم أن يراعِيهَا فى تعامِله العِلمى ، مع العلماءِ ، وطلابِ العلم الذينَ سيشاركُهم فى طلبِ العلم .

فقال لهُ المرغيانى :

– هاتِ موجزَك يابرهانَ الدين ، فإنى أسمع .

قال برهانُ الدين :

– على طالبِ العلمِ ياسيدى ، بعد أن يُحسِن اختيارَ العلمِ الذى يحّبه ، واختيارَ المعلّمِ الذى يؤثِرهُ ( بفضله ) ، واختيارَ شركائِه فى طلبِ العلم ، خاصةً الذين يذاكرُ معهم ، عليهِ أن يعظّمَ معلّمه ، ويحترمَ شركاءَه فى طلبِ العلم ، وعليه أن يُحسنَ الظنَّ بالناسِ عامة ، وبالمعلمِ والشركاءِ خاصة ، وعليهِ أن



يحرِصَ على الوفاءِ مع شركائِه فى طلبِ العلم ، بمعرفةِ آدابِ المشاركةِ والمُشاوَرةِ ، والمطارَحةِ والمذاكرةِ ، والحِوَارِ والمناظَرةِ . وعليه أن يعرِفَ أنّ الغاية من المناظرةِ والمحاوَرةِ ، هى إظهارُ الحق ، لا إفْحَامُ الخصم ، وأنّ الحوار يكُونُ بالإنصافِ لرأيِ الآخر ، والتأنّى فى إبداءِ الرأى ، والتأملِ فيما يقولُ ، وفيما يَسمَعُ ، وتجنّبِ الغضبِ والسّبابِ فى المناقَشةِ ، والتعصُّبِ للرأْيِ . وعليهِ أن يبتعدَ عن التمويهِ فى حوارِه ، ومخادعةِ مُناظِره ، والتحايُلِ عليه . وكلُّها ياسيدِى غاياتٌ اجتماعيةٌ أخلاقيةٌ .

## آفة طلاب العلم

فى تلك الليلةِ ، طالت أسئلةُ الشيخِ المرغيانى لبرهانِ الدين ، وكثُرتْ موجزاتُ برهانُ الدينِ لآرائه فى كتابه ، خاصةً عن الحفظِ والنِّسْيانِ .

وفى تلكَ الليلة ، قال المرغيانى لبرهان الدين :

– غداً إن شاءَ الله ، سألتقِى بالعلماءِ فى المسجدِ الجامع ، لأحدِّثهم عنك ، وهُمْ يعرفُونك ، وعن كتابِك ، وهم لم يعرفُوه بعد . ولسوفَ أطلبُ منهم تكليفَك بإعدادِ طلابِ العِلمِ



الجُدُد ، لحلْقاتِ دروسِهِم ، تُعلِّمهُم كيفَ يقرءُون كتاباً ، وكيفَ يفهمونَه ، وكيفَ يحفظونَه ، وكيف يذاكِرُون ، ويراجعُون مذاكَراتِهم ، فآفةُ تحصيل العلمِ ، هى جهلُ طلابِ العلم بطُرقِ هذَا التحصيل .

وسعِد برهانُ الدين بما قالَه له شيخُه ، وقال لَه :

– أرجُو أن أكونَ عند حسنِ ظنّك ، وظنِّ العلماءِ بى .

## مسئوليات برهان الدين

وسكتَ برهانُ الدين لحظةً ، ثم قالَ لشيخهِ :

– لم أضع لكتابِى هذا عنواناً . فقد احترْتُ حقاًّ فى اختيارِ عنوانٍ له ، ورجوتُ أن تُشيرَ علىّ بعنوانٍ دقيقٍ ، يُعبِّر عن موضوعِ هذا الكتابِ .

فضحِك المرغيانى ، وقالَ لبرهانِ الدين :

– ذكّرتنى بما نِسيتُ أن أذكرَه لك يابرهانَ الدين . اجعلْ عنوانَ كتابَك هذَا ، إذا رضِيتَ عنهُ ، وقبِلتَه : « تعليمُ المتعلِّم طريقَ التعلّم » .

وصارَ على برهانِ الدين ، أن يَحملَ عبءَ ( مشقة ) مسئولياتٍ ثلاثٍ : أنْ يُدرِّس كتابَه ضُحَى كلّ يومٍ لطلابِ العلم الجُدُد ، وأنْ يُدرّس كتابَ « الهداية » عصرَ كلِّ يوم لطلابِ حلقةِ الفقهِ الحنفيِ ، وأن يصلِّى بالناسِ ، فى المسجدِ الذى يعملُ بهِ واعظاً وإماماً ، الصلواتِ الخَمْس .

## فى بيت الأمير

وذاتَ يومٍ ، صحبَ برهانُ الدين شيخه المرغيانى ، للقاءِ أميرِ خُوقند . فلقد قرأ الأميرُ كتابَ « برهانِ الدين » « تعليمُ المُتعلِّم طريقَ التعلم » ، وأُعجبَ به ، فدعَا الشيخَ المرغيانى للقائِه ، ورجَا منه أن يصحَبَ معَه ذلِك العالِم اللامِعَ « برهانَ الدينِ الزرنُوجىّ » .

وجلَس المرغيانى وبرهانُ الدين معَ الأمير جلسةً خاصةً ، فى شرفةٍ بطابَق عُلوى بقَصرِ الإمارة ، يأكلُون حلْوَى ، ويشربُون شاياً ، ويتسلَّوْن بالمكسراتِ من بُنْدقٍ ، وجوْزٍ ، ولوزٍ . وكانَ الحديثُ يروحُ ويجىءُ بينَ الثلاثة ، فى شئونٍ شتَّى ، من شئونَ



العلم ، والسياسةِ ، وحياةِ الناسِ فى خُوقَند ، وأحوالِ طلابِ العلم فى تركستان الشرقية ( أوزبكستان الآن ) .

## خذ بيد ولدى

والتفتَ أميرُ خوقند إلى برهانِ الدينِ ، وقالَ له :

– الآنَ تدخلُ فى الموضوعِ الذى دعوتُك من أجلِه يابرهانَ الدين ، بعدَ أنْ أطمأنّ قلبِى إليك .

فقالَ له برهانُ الدين :

– مُرنِي بما تشاءُ ياسيدى الأمير .

فقال لهُ الأميرُ :

– إذا قبلتَ أيُّها العالمُ الجليل ، أن تكونَ مُؤدِّبا ( مربِّيا ) ومعلّما لولدِىَ الأكبر ، وولِّى عهدِى من بعدِى ، فسوفَ تجلب السّرورَ إلى قلبِى ، وتُهدِى أهلَ خُوقند أعظَمَ هديةٍ ، برعايتِك لابنِي .

وهَمّ برهانُ الدين بالكلامِ ، معتذراً بأنه لايصلُح لتعْليمِ

الصّبيان ، وأنّ بضاعته من العلمِ هى فى الفقهِ الحنفِىّ ، لكنّ الأميرَ قطعَ عليه طريقَ القولِ بقوله :

– لاتعتذرْ يابرهانَ الدين . فما أريدهُ منكَ لولدِنا ، هو أن تأخُذَ بيدِهِ ، لتُعلِّمه طريقَ تحصيلِ العلم ، وكيفَ يحفظُ ويفهَم ، وكيفَ لاينسَى ولايغفَل ، وكيف يواظِبُ على تحصيلِ دُرُوس العلمِ ، دونَ أن يُجهدَ أو يَملّ ويسأم ، حتى يتعلمَ كيفَ يحصِّلُ العلمَ وحدَه ، دونَ معلّم لو دعَا الأمرِ . ولْتَعْلَمْ يابرهانَ الدينِ أن وَلَدَنا يتردّدُ عليه معلّمونَ مُقْتدرُون ، فى علومٍ بعينها ، أعلم أنها تلزَمُ لإعدادِ منْ يتعلمُ لأنْ يكونَ حاكِماً لرِعيّة ، وولدِى أهلٌ لها ذكاءً وخُلُقا .

فقالَ المرغيانى للأمير :

– اخترتَ أيّها الأميرُ الرجُلَ الجديرَ بهذهِ المهمّة ، وهى مهمةٌ يسيرةٌ علَى برهانِ الدين .

وعندئذٍ قالَ برهانُ الدين للأمير :

– قبلتُ هذِه المهمةَ ياسيدِى الأمير .



## كيف أحفظ ولا أنسى ؟

فى أول لقاءٍ بينَ برهانِ الدين ، وابنِ أميرِ خوقند ، وكانَ شاباً دُونَ السادسة عشرةَ من العمرِ ، قالَ برهانُ الدين لابنِ الأمير :

– أخبرنى يابنى بالمُشكِلاَتِ التى تواجِهُها فى تحصِيلِ العِلم .

فقالَ له أبنُ الأمير :

– أولُ مشكلةٌ ، وأكبرُها ياسيدى ، هى فى الحفظِ لا فى الفهمِ ، وفى النسيانِ لا فى الكسَلِ .

فقالَ له برهان الدين :

– هذهِ مشكلةٌ كبرىَ يابُنى ، ولستَ وحدك الذى تعانِى منها ، فكُلّ طلابِ العلمِ يواجِهُون هذه المِحنَة . فاسمعْ منّى يابُنى .

فقالَ له ابن الأمير :

– إنى لكَ ، ياسيدِى العالمِ ، سامعٌ ومُطيعٌ .

فقالَ له برهانُ الدين :

– عليكَ يابُنىّ ألا تَحفَظَ من الكتبِ ، مادامَ الفهمُ يسيراً عليْكَ ، سِوى كتابٍ واحدٍ ، كمرجعٍ فى هذا العلم ، يذكرُه لك أستاذُك فى هذا العلم .

فقال له أبنُ الأمير :

– وماطريقةُ الحِفْظِ التى لا أنْسَى معها ياسيدى ومُعلِّمى ؟

فقالَ له برهانُ الدين :

– عليكَ أن تَحفظَ وأنتَ تنظُرُ إلى الكلماتِ المكتوبةِ بعينيْك ، ولاتَعتَمِدْ على الحفظِ وأنتَ تسمعُ ، والترديدِ لما تسمعُه . وعليكَ أن تَقسِّم ما تحفظُه جُزءاً جُزءًا ، وبقدرٍ معلومٍ فى كلِّ يوم . وعليكَ ألا تحفظَ إلا وأنتَ فى حالٍ من اليقظةِ تكونُ مستعداً فيها للحفظِ . وعليكَ ألا تحفظَ إلا فى وقتٍ مناسبٍ لكَ فى الحفظِ ، من الليلِ أو النهارِ . وعليكَ ألا تحفظَ أىَّ قدرٍ من العلمِ إلا بعد فهمِهِ قبل الحفظ . وعليكَ ألا تحفظَ إلا علماً تُحبُّه ، وتختارُه ، حتى تكونَ راغباً فى حفظِ هذا العلمِ . وعليكَ أن تلتزمَ فى غذائِك بتناولِ أطعمةٍ وأشربةٍ ، فيها سُكر وَفيرٌ ، مثل العَسل ، والعصائرِ المُسكَّرة ، حتى



تساعدَك الصحةُ ، ويعينُك حسنُ الغذاءِ ، على اليقظةِ ، والحفظِ ، والفهم .

فقال له ابنُ الأمير :

– وكيف أسترجعُ ما حفظتهُ ياسيدى ، حينَ أشاءُ ، ولا أنساه .

فقال له برهانُ الدين :

– إذا واظبتَ فى كلّ يوم علِى أن تسترجعَ ماحفظته خلال خمسةِ أيامٍ علَى الأكثرِ ، فسوفَ لاتَنْسَى ماحفِظتَه قَطّ ، إلا إذَا انقطعتَ عن دراسة هذا العلمِ . فالتركُ يورثُ النسيانَ ، والنسيانُ يورثُ ضياعَ العلمِ . فخذْ نفسَك فى الحفظِ والتذكرِ لما حفظت بالرفقِ ، وبالتجزىء ، والتدرجِ ، وبالتنظيمِ تبلغُ الغايةَ التى تصبُو إليها .

ودامتْ دروسُ برهانِ الدين ، المؤدِّبُ المربّى ، لابنِ الأميرِ قرابَة ستّةِ أشهر ، يلتقيان كلّ يومٍ فى ساعةِ الضّحُى ، فى دارِ الإمارةِ ، وينفصلاَن عنْدَ أذانِ الظهر ، إلى لقاءٍ آخرَ ، فى يومٍ جديدٍ .



## مدّ وجَزْر

فى القرنِ الهجرىّ السادِس ، الميلادىّ الثاني عشرَ ، عاشَ « برهانُ الدينِ الزرنوجى » . وكان قرْننا خالياً من الأحداثِ الكبرَى فى العالمِ الإسلامىّ فكلّ ماحدثَ فى هذاَ القرنِ ، هو أن دولاً إسلاميةً قد حلّت فى السيطرةِ ، محلى دولِ إسلاميةٍ سابقةٍ عليها ، بالقهْرِ والغلبةِ . فقد انتزعَ الموحّدونَ فى المغربِ



الإسلامِىّ والأندلسِ الحكمَ من المرابِطينَ . وحلّ الأيوبيّون ، فى مصرَ والشام والحجازِ ، محلّ الفاطميّين . وذهبَ السلاجِقةُ فى فارسَ ، وجاءَ بدلاً منهم الخُوارزْمشاهِيَّة . وتركَ الغَزْنويّون أفغانستانَ وجنوبَ فارسَ للغُوريّين . وانتزعَ « القُره خطاى » الوثنيون بلادَ ماوراءَ النهرِ من المسلمين .

وفى افريقية الشرقية والغربية ، كسِب المسلمونَ مزيداً من الأراضى الافريقية . وراحَ الصليبيّون يضربُون فى طرِيقهم ، فى الشامِ ، وشمالِ العراق ، دونَ أن يحصلُوا على ثمرةٍ أو نتيجة ، أو ينالُوا استقراراً فى مدينةٍ احتلّوها .

## قرن المدارس والمدرسين

وفى هذا القرن ، ظل النشاْطُ العقلىّ قَوياً عند المسلمينَ ، وراحَ الأوروبيون ، لأول مرةٍ ، ينافسُون المسلمينَ فى هذا النشاطِ العقلى ، بفضل معارِفِ المسلمين وأفكارِهم ، التى تعرفُوا عليها عبْر جزرِ المتوسّط ، والأندلسِ ، وخلالَ حَملاتِهم العسكرية على الشامِ ، وشمالِ العراق ، وأثناء تجارَاتِهم البحرية الغاديةِ والرائحة ، مع الموانى العربيةِ ، وبفضلِ حرصِهم على

ترجمةِ الثَّمَراتِ العلمية الكُبرى ، التطبيقية منها خاصةً ، إلى اللغةِ اللاتينية ، أولاً بأول ، ولقد رفعتْ هذِه الثمراتُ العلميةُ من هيبة المسلمينَ فى أعين الأوروبيين .

لكن الآثارَ العقلية للمسلمينَ فى هذا القرن ، كانتْ أقلَّ شأناً من آثارِهم فى القُرونِ الماضيةِ . فقد صار العلماءُ فى المشرقِ الإسلامىّ ، حتى من صارَ منهم أئمةً للعلمِ فى هذاَ القرن ، عيالاً وعالةًعلى المسلمينَ السَّابقينَ ، فقد أصابَ أهلُ الجدَلِ من علماءِ الكلام، والرجعيّون من أهلِ الجمود ، عقولَ الناسِ بالعُقْم والضعفِ .

وفى الوقتِ نفسه ، كانت تحدثُ فى المغرب الإسلامىّ عامةً ، وفى الأندلسِ خاصة ، نهضةٌ ثقافيةٌ عظِيمة ، ارتفعتْ فوق إنتاج المشارقة العلمىّ ، أولئكَ الذين تكبّلهم ( تقيِّدُهم ) التقاليدُ ، ويعجزُهم الجدلُ والجمودُ عن السعى فى العلمِ إلى جديدٍ . ففى الأندلسِ خاصة ، حدثتْ نهضةٌ طبيةٌ وفلسفيةٌ عظيمة ، كانَ من أعلامِها : ابنُ طُفَيْل ، وابنُ رشد ، وابنُ زُهْر . وصارَ للشريفِ الإدريسِىّ خاصةً ، الفضلُ فى نشرِ الثقافةِ الإسلاميةِ فى أوروبا ، عبر الأندلسِ وصقليّة .



وفى هذاِ القرنِ الخاملِ والخامدِ فى المشرقِ الإسلامى ، عاشَ برهانُ الدين الزرنُوجى ، أَبو التربية والتعليم ، بين علماءَ مدرسين ، وعلماءَ شُراحاً ومعلّقين عَلى آثارِ السابقين ، ولكنه استطاعَ أن يؤسّس طريقة فى التربيةِ والتعليمِ ، كانت منهجاً وحصَادا وتَقْنينا لآثارِ السابِقين ، فى التربية والتعليم ، من الفلاسفِة المسلمين ، والمعلّمين ، وفى عصرٍ بدأتْ توجدُ فيه ، مدارسُ للتعليم ، إلى جانبِ المساجد الجامعة الكبرى ، فى مصر ، والشام ، والمغرب ، والأندلس .

●

ولايعرفُ أحدٌ من المؤرخِينَ ، وكتابِ موسوعاتِ الأعلامَ ، فى الشرقِ أو الغربِ ، تاريخَ ميلادٍ لبرهانِ الدينِ الزّرْنُوجِىّ ، فكّل ما أشاَر إليه المؤرخُون والموسوعيّون هو أنّ برهانَ الدين قد ودّع الدنياَ فى العامِ الهجرِى السادسِ والتسعينَ بعد الخمسمائةِ ، الميلادىّ التاسعِ والتسعينَ بعد مِائةٍ وألف ، وأنهُ قَدْ ألف كُتابَه « تعليمُ المتعلّمِ طريقَ التعلّم » قبل أن يودّع الدنيا بثلاثِ سنوات ، ولم يذكرِ المؤرخُون ولا الموسوعيُّون أينَ وُورِىَ ( دفن ) جَسَدُ برهانُ الدينِ الزرنُوجى ، فى أىّ بقعةٍ من

بقاعِ تِركستان الشرقية ، التى نعرِفُها الآنَ باسمِ أُوْزِبكِسْتَان .

●

فى الشرقِ ، اشتهر كتابُ برهانُ الدينِ الزرنُوجىّ « تعليمُ المتعلّمِ طريقَ التعّلم » ونافسَ هذا الكتابُ فى القرونِ التالية ، كتاباً آخر فى التربية والتعليمِ سابقاً عليه ، هو كتابُ القابِسىِّ القيرُوانى ، وكتاباً آخر جاءَ بعده ، فى التربيةِ والتعليم ، هو كتابُ « فى أحكامِ المعلمين والمتعلّمين » لمحمد بنِ أبى زَيْدٍ . ويعدّ الأستاذُ الدكتورُ إبراهيم سلامة ، كتابَىْ القابسْى والزرنُوجى ، أهمَّ كتابيْن فى التربيةِ ، فى الثقافةِ الإسلاميةِ العربيةِ القديمة .

وفى الشرق اختلفتْ عناوينُ كتاب « برهان الدين الزرنوجى » ، على أيدِى الناسِخين ، قبل أن يُطلَ عصرُ الطباعة ، فهو تارة يحمل عنوان : « تعليم المتعلمين على الكَمالِ » وتارةً يحملُ عنوان : « تعليمُ المتعلّم لِتَعَلُّم طريق التعلُّم » وتارة يحملُ عنوان « تعليمُ المتعلّم طريقَ التعلم » . وقد شرحَ إبراهيمُ ابنَ اسماعيل كتاب الزرنوجى ، بهذا العنوانِ الأخير ، فى رسالةِ سماها : « الرسالة المسماة بتعليم المتعلمِ طريق التعلم » وشرحَه



من قبلِه ومن بعدِه كثيرُون .

وفى الشرقِ « طبع كتابُ برهانُ الدين ، فى تونسَ ، ومصرَ ، ومرشد آباد وقازَان ، والآستَانَة ، وأكثرُ هذه الطبعات عدداً كانَ فى مصر ، منذُ أواخرِ القرنِ التاسعِ عشرَ الميلادىّ ، إلى اليوم .

وفى الغربِ تُرجم كتابُ برهانُ الدينِ الزرنوجىّ إلى اللغة اللاتينية . ثم توالتْ طبعاتُه وترجماتُه ، منذ أوائلِ القرنِ الثامنِ عشرَ الميلادىّ ، إلى اللغتينِ الألمانيةِ والإنجليزية .

●

وفى الشرقِ والغربِ كتَبَ كثيرونَ من المحَدثينَ عن نظرةِ برهانِ الدين الزرنُوجى فى التربية والتعليم ، بينَهم مستشرقُون من ألمانيا وفرنْسا وانجلترا ، وبينهَم علماءُ تربيةٍ عربٍ محدثُون ، وفى طليعةِ هذه الكتاباتِ العربية عن الزرنُوجى كتابُ « التعلم عند برهان الإسلام الزرنوجى » لأستاذٍ من أساتذةِ التربية بكلية التربيةِ بجامعةِ عين شمس ، هو الدكتور « سيد أحمد عثمان » . وهو الكتاب الوحيدُ ، فيما نعلمُ ، عن التعلّم عند الزرنُوجى . مثلما كان كتابُ الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى « التربيةُ فى

الإسلامِ أو التعليمُ فى رأىِ القابسى » هو الكتابُ الوحيد .

●

عاشَ برهانُ الدين الزرنوجىّ ، فى عصرٍ شاعَ فيه الاهتمامُ بإنشاءِ المدارس ، وتأسيسِ المعاهدِ الدينية ، وانتشرتْ فيهِ مجانيةُ التعليمِ بهذه المدارس ، وبالمساجدِ الجامعةِ فى عواصمِ العالمِ الإسلامىِ ، ومدنِه الكبرى .

ولطلاب العلم ، والمعلمين ، ألف الزرنوجى كتابه فى التربية والتعليم محتذيا كتاب سابقة « القابسى القيروانى » فى التربية والتعليم ، فوضع بكتابِه أُسُسَ التربية للحضارة العربيةِ الإسلامية ، فى العصورِ الوسطى ، وتأثّر الغربيّون بثمراتِ هذا الكتاب فى التربيةِ ، إثرَ ترجمتِه إلى اللاتينية ، ثم بعد ترجمتِه إلى الألمانيةِ والإنجليزيّة ، ولم يهتمّ أحدٌ بعدُ من الدارسين العربِ بدراسةِ هذا التأثير ، فى المناهج الغربية ، فى التربية الحديثة ، لمفكرٍ تربوىٍّ عربىٍ مسلمٍ ، عرفتْه الحضارةُ العربيةُ الإسلاميةُ قبلَ ثمانمائةِ عام .

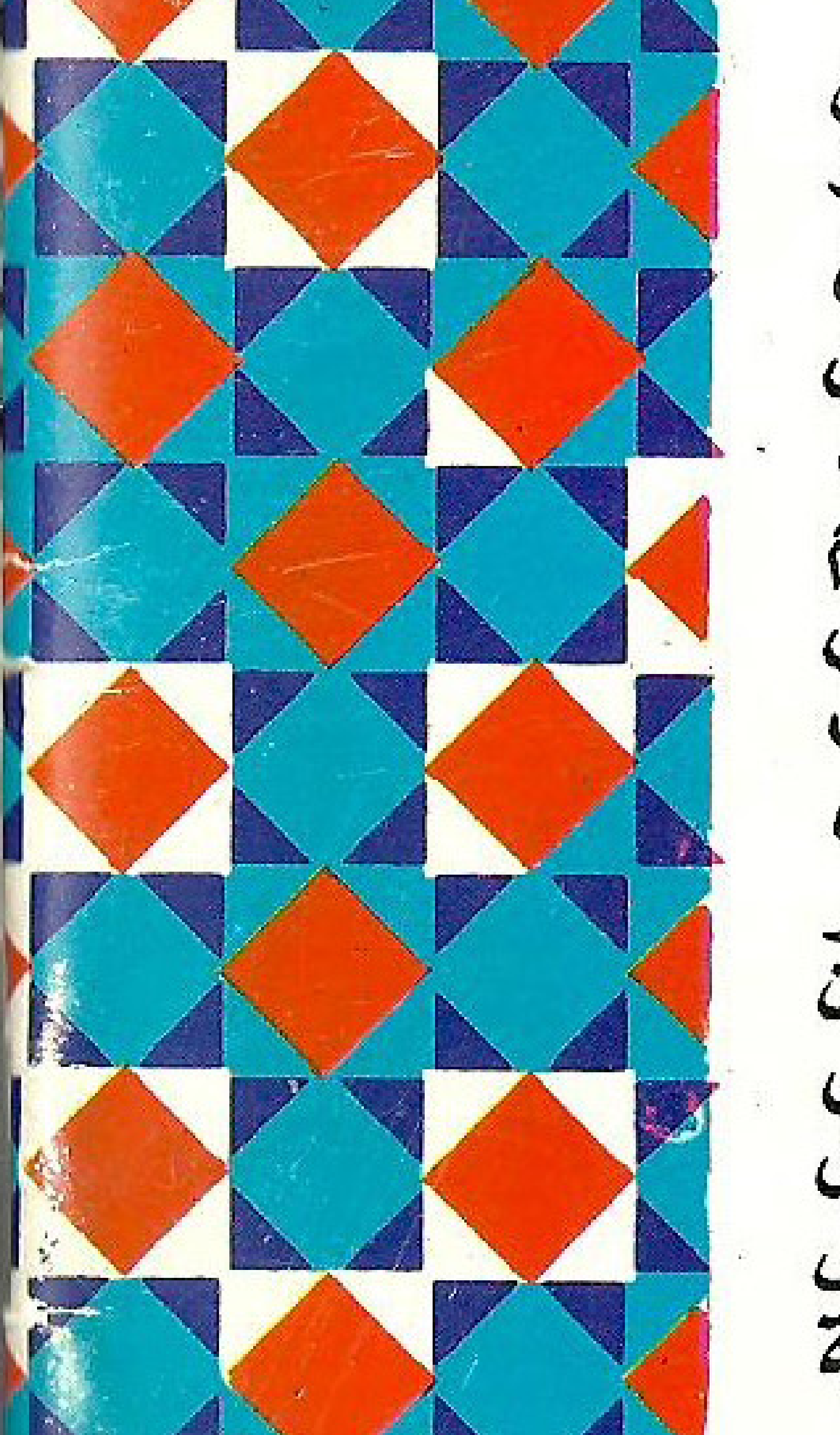
رقم الايداع

٩٧/١٥٣٤٨

علماء العرب ٣١

# الــزرنوجى

عالم عربي مسلم ، عاش فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، على ضفاف نهر " سيحون " . وكان من آباء التربية والتعليم فى العصور الوسطى وألف كتابا شهيرا فى علم التربية ، ليعلم به طلاب العلم طريقة فى التحصيل العلمى والمراجعة . وترجم كتابه إلى اللغات اللاتينية والإنجليزية والألمانية . وأثرت آراؤه التربوية فى عصره وبعد عصره . إنها قصة تثير الفخار يقرؤها الصغار والكبار .



صدر من هذه السلسلة :

١ ــ ابن النفيس
٢ ــ ابن الهيثم
٣ ــ البيرونى
٤ ــ جابر بن حيان
٥ ــ ابن البيطار
٦ ــ ابن بطوطة
٧ ــ ابن سينا
٨ ــ الفارابى
٩ ــ الخوارزمى
١٠ ــ الإدريسى
١١ ــ الدميرى
١٢ ــ ابن رشد
١٣ ــ ابن ماجد
١٤ ــ القزوينى
١٥ ــ ابن يونس
١٦ ــ الخازن
١٧ ــ الجاحظ
١٨ ــ ابن خلدون
١٩ ــ الزهراوى
٢٠ ــ الانطاكى
٢١ ــ ابن العوّام
٢٢ ــ الطوسى
٢٣ ــ الكاشى
٢٤ ــ الوزّان
٢٥ ــ ابن الرزّاز
٢٦ ــ تقىّ الدين
٢٧ ــ الرّازى
٢٨ ــ الكندى
٢٩ ــ الخليل
٣٠ ــ ابن حمزة
٣١ ــ الزرنوجى



مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر